

لغة العرب

الرافعي

« ان هذه العربية بنيت على اصل سحري يجعل شبابها خالدا عليها فلا تهرم ولا تموت لانها اعدت من هذا الازل فاكا دائرا للنيرين الارضيين العظيمين كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء كأنها اخذة السحر لا يملك معها البليغ ان يأخذ ويدع » .
(تحت راية القراءان للرافعي ص 9)

« انما اللغة مظهر من مظاهر التاريخ والتاريخ صفة الامة . والامة تكاد تكون صفة لغتها لانها خاصتها الطبيعية التي لا تنفك عنها ولا قوام لها بغيرها فكيفما قلبت امر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الامة واتصال الامة بها وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول الا بزوال الجنسية وانسلاخ الامة من تاريخها واشتمالها جلدة امة اخرى » .
(ص 46)

« انما القراءان جنسية لغوية تجمع اطراف النسبة الى العربية فلا يزال اهلهم مستمرين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة او حكما حتى يأذن الله بانقراض الخلق وطبي هذا البسيط ولولا هذه العربية التي حفظها القراءان على الناس وردهم اليها واوجبا عليهم لما اطرد التاريخ الاسلامي ولا تراخت به الايام الى ما شاء الله ولما تماسكت اجزاء هذه الامة ولا استقامت » .
(ص 57)

« فانك لتجد المسلمين يختلفون في كل شيء حتى في الدين نفسه ولا تجدهم الا شعورا واحدا بالروح الدينية العربية التي مساكها الكتاب والسنة في عربيتها الفصيحة وهي لاسبيل الى التغيير او التبديل فيها » .
« ولن تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين الا وجدت له مثلها في اللغة وان كنا لا نقول بالعكس » .
(ص 62 و 63)

« فبقاء القراءان على وجهه العربي ، مما يجعل المسلمين جميعا على اختلاف الوانهم من الاسود الى الاحمر كأنهم في الاعتبار الاجتماعي وفي اعتبار انفسهم جسم واحد ينطق لغة التاريخ بلسان واحد » ... الخ .

« وان اعجب ما يروغنا من الجنسية العربية في القراءان انها تأبى الا ان تحفظ على اهلها تلك الصفات العربية من الأنفة والعزة والصوت والقلب . وما يكون من هذا الباب الاجتماعي الذي لا يزال يمنح للشعوب من مقاصير الارض » .

(اعجاز القراءان ص 93 و 94)

وتباعدة من اوربا ، فقد كان للاخيرة دولة واحدة بينما كانت الامة العربية قبائل لا يربطها الا حد السيف او سنان الرمح .

واضح اذن ان القرآن هو السبب الاول والاخير في توحيد لهجات اللغة العربية وجعلها لغة واحدة .

والقرآن قام بهذا الدور بما فهمه المسلمون الاوائل عنه انه دستور الحياة والدولة ومصدر القوانين والسلطات وكتاب العقيدة ومنهاج العبادة ومنظم الاخلاق . فالدولة لا تكون شرعية اذا أهملت آية واحدة منه ، وكل انسان في الدولة مسؤول عن تطبيق القانون والمحافظة عليه بل المطالبة بتنفيذه بأمانة اذا لزم الامر ذلك . وهو كما قلنا كتاب عبادة يرجع اليه في كل صغيرة وكبيرة في حياة المسلم ، ولا تقبل صلاته ، التي يمارسها خمس مرات يوميا ، الا بتلاوة آيات منه ، كما ان قراءته في ذاتها عبادة يؤجر الله عليها .

وليس هذا فحسب ، فالقرآن كلام الله لا يمكن ترجمته وتبديله وذلك لان طبيعة المعجزة القرآنية لا تتم الا اذا بقي على حاله ، فاعجازه في بلاغته ، وبلاغته مرتبطة باللسان العربي ، وهذا هو الذي رفع مكانة اللغة العربية فأصبحت مقصدا بعد ان كانت وسيلة تفاهم ككل لغات الارض ، فدراسة اللغة العربية بدقة وعمق ، ودراسة اساليب الجمال العربية أصبحت الوسيلة السليمة الفعالة لفهم القرآن الكريم الذي ذكرنا اهميته في حياة المسلم الخاصة والعامة .

ونخرج من هذا بنتيجتين هما :

1 - ان القرآن اعطى اللغة العربية معنى اكثر من كونها لغة .

2 - ان اللهجات العربية توحدت عندما وجدت الحاجة لذلك .

اذن لابد من حاجة وضرورة لتوحيد اللهجات لا للغة العربية فحسب ولكن لاية لغة .

وبما ان اللغة شيء يستعمله كل الناس المثقف وغير المثقف والامي والمتعلم بنفس النسبة ولنفس الغرض ، فلا بد ان يكون الداعي لتوحيد لهجات لغة ما امر عظيم يدفع الناس من أعماقهم ولدخل نفوسهم ، ولا يجلبهم جنبا ولا اظن ان امرا ما يستطيع ان يجذب الناس لتوحيد لهجاتهم (مهما عظم) ، لان الناس مهما كانت معادتهم قوية فانهم دائما يميلون الى الاسهل ، والاسهل هنا ، هو ما شب عليه اللسان ، وهذه حقيقة تؤكدنا تواريخ لغات الارض جميعا ، اذ كانت دائما تميل للتعدد والتباعد والتباين فيما بينها .

والآن والامة العربية تعيش ظروفا تشبه ظروفها قبل الاسلام ، نستطيع ان نقول انه لا يمكن للهجات العربية الموجودة حاليا ان تلتقى ، ولا بد للعاميات من ان تستفحل وتدخل خضم الادب لتسهل على الشعوب العربية فهم ادبائها ، خاصة وانه لا توجد ضرورة لتوحيد اللهجات العربية ، فالنظم السياسية مختلفة والعقائد مشتتة واكثرها مستورد من امم اخرى ، فليست العربية بذات بال في هذا الصراع ، بل ان السياسي العربي مضطر لاستعمال كلمات واصطلاحات لا تمت لتاريخ هذه الامة بصلصة ، ذلك لان دعوتهم السياسية تكونت في ظلال لغة اخرى بعيدة عن العربية .

واعتقد بهذا ، اننا نكون قد وصلنا الى نتيجة حاسمة وهي ان مشاكل اللغة العربية ليست مشاكل فنية بقدر ما هي مشاكل سياسية وفكرية ، وهذا بالطبع ينطبق على المشكلة العربية الاولى وهي اللهجات العامية .

وبالتالي نستطيع ان نقول ان اللغة العربية لن تأخذ طابعها المميز ولهجاتها الفصحى الواحدة ما لم تدع لذلك ضرورة ماسة تدفع الانسان العربي من داخله للتخلي عن لهجته السهلة ودراسة اللغة الفصحى ولا يمكن ان تكون هذه الضرورة غير القرآن ، اقول هذا بلا تحفظ ولا تحيز ، وذلك للاتسي :

1 - لن ينزل قرآن آخر ، ولن يوجد كتاب له قداسة القرآن واهميته ، اذ انه لا انبياء بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

2 - المبادئ المستوردة لا تحتاج للغة العربية بل ستكون سببا في انهيارها .

3 - مجرد الدعوة للوحدة العربية وبثها في نفوس العرب على أي أساس كان غير الاسلام لا يدعو اطلاقا لتوحيد اللهجات العربية ، ولا يمكن ان يكون دافعا للتخلي عن اللهجات المحلية .

فمنذما تعود الى القرآن وتدخله كل جوانب حياتنا وعلى كل المستويات ، عندها فقط ، تصبح اللغة العربية الواحدة ضرورة وواقعا ويقبل عليها كل العرب بل وغير العرب من المسلمين ، لان اللغة العربية الواحدة تصبح في ذلك الحين لا مجرد لغة بل جزءا أساسيا في الاسلام .

ونحن لا نريد العودة الى القرآن من أجل العربية (بالطبع) ولكن نعود اليه عندنا نتيقن انه الطريق الوحيد لخلاصنا .